مفهوم العنف واللاعنف

أ.فقيه العيد

يحدد علماء المنطق أن التعريف لأي شيء يجب أن يكون جامعا يجمع جميع عناصره، ومانعا من دخول الأغيار فيه في آن واحد على الصعيدين النظري والإجرائي. لذلك بقي مفهوم "العنف"، مصطلح هلامي المعالم والأبعاد، فلا يحده شيء وليس له مدلول ثابت في العقل والوجدان. فراح كل باحث يفسره في ضوء تخصصه، أو بما يخدم مصالح وغايات معينة، ويتطابق مع مشارب فكرية أو مدارس فكرية.

بالرغم من انتشار هذا المصطلح في عالم السياسة إلاّ أنه لم يلقى تعريفا محددا بصورة منطقية وبشكل لا يقبل اللبس. حيث عرّف الساسة العنف [1] على أنه " استعمال أساليب القوة المباشرة والقهر والقسوة ضد الآخرين لتحقيق غايات العنف في الواقع ". عندما نتفحص جيدا هذا التعريف نجده يحتوي على الكثير من الضبابية، ويفتقر للدقة والجامعية. ذلك أنه ليس كل استعمال للقوة بأي صورة كانت تعبر بالضرورة عن العنف، و لم يحدد من هم "الآخرين" في التعريف، هل هم الظلمة والمعتدين أم طلاب الحق والمظلومين؟

يرى المنطق أن استخدام القوة بمختلف أساليبها هو من ضروريات استمرار الحياة، و ديمومتها على الصعيدين التكويني والكوني. كما ينسجم استخدام القوة مع قاعدة العقاب والثواب سواء التي حددها القانون الشرعي أو الوضعي.

نرى أن الطريق الأسلم لتعريف العنف هو تعريف "اللاعنف"، وعلى أساسه نتعرف على نقيضه. تستمد مدرسة اللاعنف **La non violence** نظرياتها و مفاهيمها من سياسة "غاندي" في الهند إبان نضاله ضد الاستعمار البريطاني، وتستشهد بالكثير من أقواله و أفعاله وتقريراته في هذا المجال، وكلها تتضمن معنى اللاعنف بنبذ الخيار العسكري والعمل المسلح لتحقيق التحرر من قيود الاستعمار، والوصول إلى بعض المطالب النقابية وحتى الثورية الغاضبة للإطاحة بالأنظمة الفاسدة، وذلك بتجنيد كل الوسائل والطرق الاحتجاجية السلمية الممكنة، كالإعلام والمقاطعة والمظاهرات والاعتصامات والإضرابات والعصيان المدني وغيرها.

نستنتج مما سبق أنه من ازدياد التذليل أو التقييد والحرمان، تأخذ النزعة إلى العنف في الظهور عنادا من الطفل للآخرين أو انتقاما منهم، أو لإثبات الذات وتعويض مشاعر النقص. وهكذا تنشأ العدوانية وتأخذ دائرة العنف في الاتساع شيئا فشيئا، وتبلغ ذروتها في الظهور كلما شعر الفرد بأنه مضطهد من طرف الآخر مما يؤدي ذلك إلى الشعور بالتهديد والإحباط والتوتر. كما تؤكد هذه الدراسة أن معايشة الطفل والمراهق لنماذج عدوانية في البيئة التي ينتميان إليها، من أشخاص حقيقيين أو خياليين من خلال وسائل الإعلام، يساهم ذلك في تحويل المشاعر العدوانية من الوالدين و أفراد الأسرة ليعممها على ذوي السلطة، فيسقط عدوانيته على الأشياء أو الأفراد الذين يقفون في طريق تلبية رغباته، متبنيا عدة سلوكات عنيفة.

دراسة دولارد و زملائه – *Dollard and al*

يعرف **دولارد** [5] العدوانية على أنها "استجابة مباشرة لتأثير الإحباط " ترتكز هذه الدراسة على العلاقة الإرتباطية بين الإحباط والعدوان، وأرست قواعد أساسية تمثل الأسس النفسية للسلوك العنيف. ويمكن عرضها بشكل مختصر في النقاط التالية:

1- تختلف شدة الرغبة في السلوك العدواني أثناء الموقف المحبط، باختلاف درجة الإحباط الذي يواجهه الفرد. وتختلف درجة الإحباط وفقا للمتغيرات التالية:

- أهمية الحاجة التي يطلبها الفرد.
- مدى العراقيل التي حالت دون إشباع الحاجة المستهدفة.
- اختلاف عدد الاستجابات التي أحبطت من قبل .

2- كلما ارتفعت درجة الإحباط تزداد الرغبة في السلوك العدواني.

3- تعتبر إعاقة السلوك العدواني في مواقف الإحباط بمثابة إحباط آخر.

4- إذا واجه السلوك العدواني تجاه مصدر خارجي صعوبات أو عوامل كف قوية، فإنه يرتد نحو الذات أو ما يسمى بالعدوانية الذاتية.

5- تعتبر الاستجابة العدوانية نحو مصدر الإحباط بمثابة تفريغ للطاقة النفسية.

6- أثناء التعبير العدواني تنخفض القدرة على الانتباه والتذكر والتفكير الهادف.

جدير بالتنويه أن التعريف الذي قدمه (دولارد) للعدوانية غير جامع، ذلك أن الشخص لا يبقى في حالة من اللاعنف في خط مستمر إذا لم يتعرض إلى قوة محبطة تضطره إلى تغيير تلك الحالة. في الكثير من الأحيان تلعب

الحوافز المادية دورا أساسيا في إنتاج السلوك العنيف، طمعا في مكاسب مختلفة يحصل عليها الفرد من وراء قيامه بالعنف. بالإضافة إلى هذا كله هناك عوامل بيولوجية تتمثل في تلك الإفرازات الغدية والإختلالات الدماغية التي تدفع الفرد إلى العنف، كما تشاهد في الحالات المرضية (السيكوباتية، و الحالات المنحرفة).

يتخذ العنف أشكالا متعددة، فمن حيث الأسلوب قد يكون العنف لفظيا أو بالإشارة أو بدنيا. ومن حيث الدافعية فقد يكون العدوان مدفوعا شعوريا يعي الفرد أسبابه وأهدافه، وقد يكون لاشعوريا كما في الحالات المرضية (الحالات السيكوباتية، المازوشية، السادية).

ومن أنماط العنف لدينا:

- العنف المادي الذي يلحق الأذى النفسي أو الجسمي باستخدام القوة المادية أو التهديد بها
- العنف المعنوي وهو عنف يمارس من خلال الضغط النفسي والسيطرة والإكراه يتم فيها إخضاع الفرد لمؤثرات ذهنية وعاطفية وآلام نفسية.

قـــد يكون العنف فرديا كما قد يكون جماعيا، وتدل الكثير من الشواهد على أن العنف يميل إلى الانتشار في المجتمعات المتحضرة أكثر من المجتمعات البدائية، ومن أمثلة ذلك:

- التعقيد الثقافي الذي يجعل الفرد يعاني من صعوبات بالغة في مُجاراة المستوى الثقافي السائد والاتجاهات الجديدة .
- التطور الحضري السريع وعدم القدرة على التوافق معه وتعقيد القوانين والخوف من الوقوع تحت طائلتها، وزيادة المسؤوليات الاجتماعية و عدم القدرة على تحملها.

لاشك أن عصر السرعة يخلق إحباطات وتوترات لدى الفرد، حيث أن مسايرته تزيد عن الطاقة التي يمتلكها الفـــرد، وتصـــاحبه مطامع قد تزيد عن القدرات. وما السلوك العنيف إلا تعبيرا ماديا ومعنويا عن مشاعر العجز والرفض و خيبة الأمل فيما يريد الفرد تحقيقه من أهداف التي لا تتناسب مع قدراته وطموحاته المرتفعة.

على ضوء ما سبق ذكره يمكن تقديم التعريف التالي للعنف : " هو سلوك عدواني يظم جميع أشكال الضغط والسيطرة والاستغلال، تحت تأثير التهديد أو الهجوم المباشر على الذات أو شخص الآخرين أو ممتلكاتهم، كنتيجة مباشرة لسوء التنشئة الاجتماعية والإحباط والصراع والتغيرات البيولوجية، قصد الإشباع الغريزي وخفض التوتر النفسي ".

يبدو أن هذا التعريف يحتوي على عناصر مهمة، وجامعة إلى حد ما وذلك للأسباب التالية :

- كل سلوك عدواني بصورة مباشرة أو غير مباشرة يعبر عنه بالعنف

- الغاية من السلوك العدواني على أرض الواقع واحدة في كل الظروف والأزمان وهو تفريغ للطاقة النفسية وخفض للتوتر النفسي
- كل أشكال العدوانية تشير إلى إلحاق الأذى المادي أو المعنوي بالآخر أو ممتلكاته
- قد يظهر العنف نتيجة لأسباب اجتماعية-ثقافية أو نفسية أو بيولوجية

الهوامـــش :

1-عزت سيد اسماعيل : سيكولوجية الارهاب والتطرف، الرسالة العاشرة بعد المائة، تصدر عن مجلة النشر العالمي، جامعة الكويت، 1996 ص25

2- المرجع نفسه ص 26

3- عبد المطلب أمين القريطى، في الصحة النفسية، دار الفكر العربي، ط1، القاهرة،1998 ص 333

4-حامد عبد السلام زهران، الصحة النفسية والعلاج النفسي، عالم الكتب، ط2، القاهرة، 1977 ص39

5-عبد السلام عبد الغفار، مقدمة في الصحة النفسية، دار النهضة العربية، القاهرة،1976 ص 112